

إستراتيجية البداية في الرواية العربية المعاصرة

رواية "ذات" لصنع الله ابراهيم أنموذجا

د. متلف آسية

جامعة الشلف

توطئة:

تشغل البداية في الرواية العربية أهمية إستراتيجية في فهم النص وتأويله، إذ تمده بمجموعة من الآليات التي تعمل على نقل الدلالة من الكثافة والعموض إلى حقول توسع المعنى وتضيئه كما أنها نقطة الانطلاق من اللاوعي إلى الوعي ومن المجرد إلى المادي ، فهي التي تمنح النص تميزه وتفرده إضافة إلى أنها تهيء الحالة الشعورية والعقلية للقارئ وتساعد على تلقي مكونات الرسالة التي يريدتها الروائي بالشكل المناسب.

ناهيك عن أنها أصعب أجزاء العمل وأكثرها تعقيدا نتيجة موقعها المتقدم على غيرها في النص ، إضافة إلى أنها تمثل المساحة التي يجسد فيها الأديب انتقاله من العادي ليصنع به المختلف ، فهي الجسر الذي يعبر من خلاله القارئ إلى غواليق النص، فإما تستنفذ قواه وتراوغه حتى تسلب فكره ومشاعره فيغدو معها في عالم تحولت كلماته المرتبة والمرصوة على الورق إلى عالم ينبض بالحياة بما فيها من هواجس ورئ ومشاعر ومتناقضات ، وإما ينصرف عنها ويعرض عن العمل كله ، لذلك تبقى النقطة الأهم لتمييز النص وتفرده.

1- مفهوم البداية :

أ- لغة: حين تصفح معاجم اللغة العربية بحثنا عن دلالات كلمة بداية نجدها منضوية تحت مادة (بدأ) التي تحيل لافتتاح الشيء¹، وبدأ بالشيء : فعله ابتداء أي قدمه في الفعل²، ويمكن إجمال أبرز الدلالات التي تحملها هذه الكلمة في:

— الظهور والبروز، التقدم والصدارة، التميز والمغايرة³.

ب- تعريف مصطلح "البداية الروائية": يختلف مفهوم البداية في النص الأدبي باختلاف الأجناس الأدبية سواء في الطبيعة أو المفهوم أم الحدود وكذا باختلاف المنطلقات وأهداف الدارس ، في حين أن الحديث عن البداية في النص الروائي يكون حديثا يعنى بالتركيبة الوظيفية للسرد "فالبداية هي العتبة الأولى بعد العنوان للتخييل وبناء إدراك أولي تتشكل معه أحاسيس وأفق انتظار منسجم ومعدل عن أفق الانتظار الذي خلقه العنوان"⁴.

إلا أن النظر إلى البداية باعتبارها عتبة نصية يبقى أمرا نسبيا ، فما استقر عليه مفهوم العتبات أو ما يسمى بالنصوص الموازية في النقد العربي الحديث مخالف نوعا ما لمفهوم البداية الروائية التي تمثل جزءا من النص ، بل هي الجزء الذي يتصدره ، في حين أن النصوص الموازية فهي النصوص الملحققة به مثل العنوان ، اسم المؤلف، الإهداء ، تاريخ النشر، الطبعة ،، وما إلى ذلك ، إذ تتلخص مهمة هذه النصوص في الحفاظ على هوية النص، أو في حسن تلقيه، أو توجيه القارئ أثناء القراءة ، فهي تبقى نصوصا تقدم أو تمهد للنص المركزي ، في حين أن علاقة البداية بالنص هي علاقة الجزء بالكل.

فالبداية هي الخطوة الأولى الحقيقية التي ستواجهه القارئ ، والمدخل اللغوي إلى عملية تواصل بين المؤلف السارد من جهة وبين المتلقي من جهة ثانية و عبرها يتم تحديد العديد من المنطلقات الأولية في تحليل النص وتأويله " فإذا كان العنوان إفضاء أول النص ، فيما الخطاب المقدماتي هو الإفضاء الثاني ، فإن البداية هي استجماع تلك الإفضاءات الخطابية والنصية في علاقة جدلية تفضي بدورها إلى رحاب التخييل"⁵.

لقد اختلف النقاد العرب المحدثين في تحديد مصطلح قار وثابت للبداية الروائية إلا أن قاموس السرديات "لجيرالد برنس" يورد عددا من المصطلحات المتعلقة بموضوع البداية في الرواية منها :

— التمهيد الذي يقول عنه " بذرة سردية لا يمكن إدراك دلالاتها عند ظهورها لأول مرة"6.

— الإعلان الذي يمثل "وحدة سردية تشير مقدما لمواقف وأحداث سوف تقع ويعاد سردها فيما بعد"7

— أما مصطلح الاستهلال فيشار به إلى جزء يسبق النص ، إذ يحدده من خلال " جزء استهلاكي في بعض السرد ، وإن كان لا يشمل العرض"8.

إلا أن طبيعة الرواية باعتبارها إبداعا لغويا يجعل مصطلح "البداية الروائية" على حد تعبير "أحمد العدواني" الأفضل والأدق في الإشارة إلى ذلك الجزء من الرواية ، ذلك أن غيره من المصطلحات إما أن يكون قد ارتبط بأنواع أدبية محددة ، أو يكون عاما في دلالاته بحيث يشمل أنواعا عدة.9

ومن النقاد العرب الذين وظفوا هذا المصطلح : "صدوق نور الدين" في كتابه "البداية في النص الروائي" ، و "أحمد العدواني" بداية النص الروائي — مقارنة لآليات تشكل الدلالة" ، وأحمد فرشوخ" تأويل النص الروائي — السرد بين الثقافة والنسق" ، ولعل أفضل تعريف يمكن أن يعبر عن المصطلح ينطلق من كونه " مقطعاً نصياً يبدأ من العتبة المفضية إلى التخييل (مفترضا اسناد الكلام إلى راو خيالي ، وفي المقابل يستمع إليه مروي له خيالي كذلك) وينتهي عند أول كسر هام في مستوى النص"10 ، وبذلك فالبداية هي اللحظة التي تؤسس للوجود المادي للنص من خلال أولى كلماته.

أما الناقدة "جليلة الطريطر" فتقدم تعريفا خاصا بالبداية الروائية باعتبارها "الحكي الافتتاحي الذي هو محل ابتداء السرد ولحظة الإنشاء بكيفيات انبثاقه وتشكله وفق لحظة فريدة من نوعها لا يمكنها أن تطابق تطابقا تاما أي فاتحة نصية أخرى لأنها لحظة تأسيس بكر لأصالة كيان لغوي طريف"11.

بعد هذا التحديد تتجسد حقيقة ما أشرنا إليه في التعريف المعجمي للبداية ففي الصدارة والتقدم من خلال وصفه بالافتتاحي وابتداء السرد ، وفي الظهور والبروز من خلال الانبثاق والتشكل ، وفي المغايرة والتميز من خلال التأسيس البكر لكيان لغوي ، فالبداية الحقيقية للنص الروائي هي البداية التي تنتقل من حالة السكون إلى حالة الإثارة والتنافر والتراع .

2_ طبيعة البداية الروائية وحدودها النصية :

يعد الوعي بالبداية في النصوص الروائية حاضرا في العرف النقدي ، إذ تمثل مبحثا نقديا هاما يهتم بالتراكيب الوظيفية للسرد ، فهي "اللحظة التي يؤسس فيها النص اختلافه وتميزه أو تشابهه وعاديته ، فإذا نجح النص في صياغة قواعد تبنيه ، واستطاع منذ لحظة البداية أن يلمح إلى هذا التباين تمكن من خلق بداية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة بداية منتجة للاختلاف ومفجرة لطاقت الإبداع"12 ، فالبداية المتميزة تضمن استمرارية النص ، فالفنية العالية للنصوص الروائية هي التي تشيد بعالم تأويلي خصب تفتح أمام القارئ أنفاقا مظلمة داخل النص الزاخر بشخصياته وأحداثه وخیالاته وأحلامه .

يشبه "أحمد العدواني" البداية "بالبيضة المخضبة التي تتحول مرحلة بعد أخرى إلى كائن متكامل الأعضاء سوي الخلقة ، مجسدا لسمات النوع البيولوجي المنسل عنه ، ومختلفا عنه في تفاصيل هيئته ومشاعره وطريقة تفكيره وما كان ذلك الاستواء ليتم لو اعتور تلك البيضة فساد أو خلل"13 ، ويصدق الحال كذلك على البداية ، فالعمل الروائي وحدة متماسكة الأجزاء لا يمكن النظر إلى بدايته إلا في ظل كليته والبداية الجيدة " تلك التي تتجاوز نفسها فتشكل مهادا يتأسس عليه النص وتقوم أركانه..."14 ، في حين يمكن لبعض البدايات أن تكون مغلقة لا تؤسس أرضية متينة للنص .

ونعود للقول أن للبداية في النص الروائي أهمية إستراتيجية في فهم آليات تكون النص وانفتاحه " فليس من باب المصادفة أن يختار المؤلف شيئا ما ليفتح به نصه دون غيره من الأفكار أو السمات أو الأساليب ، وما إلى ذلك من إمكانات النص فالوعي بشرط عام لتحقيق أي بداية ناجحة"15 ، ومما لا شك فيه أن جل الروايات الحديثة تسعى إلى خرق المؤلف فهي روايات ذكية ومتقنة تبني

بداياتها على أنها "علامة ضوئية تحدد الاتجاه والوعي بالكتابة عند الكاتب ، وتبرز من جهة أخرى القلق الذي يساور الروائي بشأن هذه البداية" 16، ويبقى الوعي شرط أساسي لتحقيق أي بداية متميزة وناجحة .

ومن أصعب وأعسر المسائل التي تواجه الناقد تحديد بداية أي نص سردي، فقد تكون البداية قصيرة قصر ما نجده في نص قصة قصيرة ، إذ من غير المعقول أن نعتبر بداية القصة القصيرة مثلاً نفس بداية الرواية التي تمتد مئات الصفحات ، إذ يمكن في هذه الحالة أن تمتد لتشمل فصلاً كاملاً 17، بيد أن بداية الروائيين تتنوع وتختلف حين الشروع في إعداد رواياتهم ، فهناك بداية تتعلق بالمبدع وبداية تتعلق بتشكيل الرواية ، وبداية تتعلق بأحداث الحكاية ، وبداية تتعلق بالقارئ ، إذ تعدد احتمالات عدة لبداية الرواية بين البدء بوصف المكان أو بالحوار أو برسم الشخصيات أو غيرها ، في حين أن للقارئ بداية واحدة ، تتلخص في الجملة الأولى من النص باعتبارها الوجود الحقيقي والمادي الذي يجسد بالكلمات والصفحات 18، إلا أن الناقدة " جلييلة الطريطر " تحدد علامات يمكن أن تساعد الناقد في تحديد الفواتح النصية نذكر منها 19:

— الفواصل التي توحى بنقطة نوعية في مستوى العبور من الانفتاح إلى ما بعده .

— البياض أو الفراغ الذي يفصل بين البداية النصية وما يليها فصلاً ضمناً.

— لجوء الروائي إلى بعض سياقات السرد الموحية عن نهاية البداية مثل: " هكذا، إذن ، أخيراً، وبعد هذه المقدمة..."

— اللجوء إلى بعض التقنيات الأسلوبية كتغيير الصوت السردي أو حدوث نقلة في التبئير أو الخروج من أسلوب السرد إلى

أسلوب السرد والحوار أو تغيير زمنية القص أو ما شابه .

بناء على ما تقدمت تفافات النصوص الروائية وتباين بداياتها بين نص رواي وآخر، فتبدأ من الفقرة الأولى في أدنى حد لها وتمتد لتشمل الفصل الأول كاملاً في حدودها القصوى ، فالجزم المقبول للبداية يكون في الرواية من " فقرة طويلة أو فقرتين وأحياناً الفصل الأول منها كله... وهذا أضعف أنواع الإستهلاكات " 20، فيشير الناقد " ياسين نصير " إلى أن الاستهلال كلما كان أقصر كان أبلغ.

3_ البعد الماوراء روائي في بداية رواية "ذات" لصنع الله إبراهيم :

تفنن الروائيون في مسألة كافة مكونات النص الروائي وأجزائه وحيثياته ، وباعتبار البداية الخطوة الأولى في بناء النص ، وباعتبار ما يرتبط بها من معاناة وما ينتج عنها من دلالة موضوع يستحق المسألة والاهتمام من قبل الروائي نفسه.

فالبدائيات الماوراء روائية تنتسب الى الحقبة الزمنية الأحدث على العموم وتعكس جميعها وعياً تجريبياً بدرجة ما 21، ويبلغ ذلك التجريب غايته في الروايات التي تناقش قضية البداية في حد ذاتها، لذلك يمكن ربط جميع الروايات ذات البداية ما وراء روائية قيمة الوعي ، فهي روايات تمتاز في الغالب — بموقع راويها العليم ، وتمثل الشخصية فيها العنصر المهيمن ، نظراً لارتباطها بالوعي الذي يمثل موقفاً ورؤية في الحياة من الشخصية نفسها ، ومن البدايات الروائية التي تجسد هذه القضية رواية "ذات" لصنع الله إبراهيم 22.

تسرد هذه الرواية حكاية امرأة اسمها "ذات" تعيش في فترات زمنية مهمة في تاريخ مصر وتحفل بقضايا سياسية شائكة هذا ما يؤدي بالضرورة إلى تغير ظروف الحياة (اقتصادياً، اجتماعياً ، سياسياً) من مرحلة إلى أخرى ، ولكن ما تعيشه الشخصية من نمطية ورتابة جعلها تحاول جاهدة اللحاق بركب التغيير على نحو ما يفعله الآخرون ولكن دون جدوى.

من خلال مقطع البداية في الرواية يظهر الوعي الدقيق بقضية ما وراء الرواية متمثلاً في مناقشة قضية البداية في حد ذاتها، إذ يقول صنع الله إبراهيم " نستطيع أن نبدأ قصة ذات من البداية الطبيعية ، أي من اللحظة التي انزلت فيها إلى عالمنا ملوثة بالدماء ، ما تلي ذلك من أول صدمة تعرضت لها ، عندما رفعت في الهواء ، وقلبت رأساً على عقب ، ثم صفعت على آلتها (التي لم تكن تنبئ أبداً بما بلغت بعد ذلك من حجم جراء كثرة الجلوس فوق المراض) ولكن بداية كهذه لن يرحب بها النقاد ، لأن الطريق المستقيم، في الأدب والأخلاق على السواء، لا يؤدي الى شيء ذي بال ، ولن يتمخض عنه في حالتنا هذه سوى إضاعة وقت كل من القارئ

والكاتب ، وهو الوقت الذي يستطيعان استغلاله مع التلفزيون ، على سبيل المثال، من موقعين مختلفين ، بما يعود على كليهما من بفائدة أكبر بكثير مما قد تجلبه مئات الصفحات الورقية ، وبالإضافة إلى هذا فإن النظرة العصرية لفن القص هي نظرة حسية ذكورية تماما ن تساوي بين المداخل المختلفة من حيث أهميتها للعملية إياها ، أي القص، ومن حيث الخاتمة المحتومة التي تنتهي أو لا تنتهي بها ، تشجع الكاتب على أن ينتقي ما يروق له منها ، وما يتفق مع مزاجه وقدراته، فيقتحمها مباشرة ، وينتهي من الأمر كله بعد عدد محدود من الصفحات "23.

فالراوي في هذا المقام يستشرف موقف التلقي للرواية استنادا إلى بدايتها ، سواء من قبل القارئ العادي أو الناقد بالإضافة إلى البحث عن الصلات والوشائج التي تربط البداية بالنهاية وعلاقة الأدب بالحياة، وعلاقة القارئ بالكاتب . يتضح بجلاء لقارئ هذه الرواية هيمنة الشخصية "ذات" على بقية العناصر الأخرى ،فهو العنصر "الذي عكسه البداية أولا ،وهيمن داخل الرواية ، ثم توسل به الراوي لمحاكمة الواقع "24، فقد حاول الراوي تقديم رؤية واعية بحقيقة التحولات التي تحدث في مصر من خلال تحريك الشخصية ، وبذلك كانت قيمة الوعي في البداية من خلال البعد ما وراء روائي حاضرة بوضوح في الرواية .

فاستخدام اسم "ذات" الشخصية الرئيسية المجرّد ، من أي حمولة دلالية أو إحالة مرجعية ناتج عن وعي عميق بأن ما عشته "ذات" الشخصية يمكن أن تنطبق على أي شخصية عاشت في تلك الفترة ويجسد مرحلة تشّت الإنسان آنذاك وحيرته ، وهذا ما انعكس في الشخصية داخل الرواية ، فهي ساذجة بسيطة لا تستقر على رأي، ولا تحتكم لمبادئ إذ تأثرت بما تعيشه من ظروف دون أن تستطيع الثبات على قناعاتها أو اللحاق بركب الانفتاح الاقتصادي أو حتى مجارات التغيرات الحاصلة، ومن خلال طبيعة وظيفتها المرتبطة بالعمل في أرشيف إحدى الصحف ، "استجابت للضيق الشائع بالخطاب السياسي الفارغ وبالشعارات الطنانة فقدمت خدمة صحفية جديدة بالمرة، احتل فيه النبأ الخاص بأن الأرز ليس مسئولا عن البدانة، مكان المنشيت القديم الممل عن الاعتداءات الإسرائيلية"25.

ولعل أبرز ما يستدعي الاهتمام في بداية هذا النص الروائي وعي الراوي وموقعه، فهو راو عليم بمشاعر الشخصية وأحاسيسها واستجاباتها وتنازلاتها في كثير من المواقف، " فذات لم تكن تتحمل الأصوات المرتفعة، إما لأنها تذكرها بالحلف الظافر لمكينات الأرشيف أو بعبد المجيد"26، إضافة إلى وعيه بالمرحلة والظروف التي أحاطت بشخصيات الرواية عامة، فهو يعمل على تعليل أفعالها وتصرفاتها " مازلنا نتحدث عن عصر لم يكن"27.

كما يتجسد البعد ما وراء روائي في اعتماد الراوي على الجمل الاعتراضية وما بين القوسين لبيان وشرح الكثير من الأمور للقارئ ، رغبة في تعميق وعيه واستيعابه لجميع تفاصيل المرحلة ودواخل الشخصيات ، وهذا من خصائص الراوي العليم المدرك لما يوجد خلف ظواهر الأشياء ، وهذا ما كانت البداية قد تضمنته من قبل ، ويكاد القارئ التماسه في جميع صفحات الرواية في الختام:

__ تفاوت النقد في تحديد مفهوم البداية وحدودها داخل النص الروائي بين الجملة الأولى والفصل الأول من الرواية ، إلا أن الأمر الأكيد أن البداية تحيل إلى أول تحقق نصي في متن الرواية ، وبذلك يخرج منها كل ما يسبق النص الروائي مما تعارف النقد على تسميته بالعتبات من (العنوان والغلاف والتصدير) .

__ تضم كلمة بداية على المستوى المعجمي دلالات تستوجب تحقيق (الظهور ، والبروز، التقدم والصدارة، والتميز والمغايرة) لذلك فإن المصطلح يشير إلى المقطع النصي الأول ، وقد اعتمدت في تقسيم النص على عناصر الشكل الروائي ، فجعلت انكسار السرد معيارا يتم به تعيين نهاية مقطع البداية، وهذا المعيار هو الأكثر دقة وتناسبا مع النصوص الروائية، باعتباره نابعا من طبيعة المكونات الروائية ذاتها.

— إن تحديد موقع البداية في الروايات ذات البداية ما وراء روائية عامة أوضح منه في الأنماط الأخرى للبدايات ، ويبلغ ذلك هدفه في حال تمييز البداية على مستوى تقسيم النص الروائي ن إذ يكون مقطع البداية مستقلا عن بقية الحكاية ، ويرتبط بالخطاب فيعمل على تأطير النص الروائي وتوجيه القراءة.

الهوامش:

- 1_ ابن فارس، مقاييس اللغة ، تح عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية ، مادة ب، د، أ .
- 2_ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، القاهرة ط1، مادة (بدأ)
- 3_ ينظر: أحمد العدواني ، بداية النص الروائي مقارنة لآليات تشكل الدلالة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ط1، 2011، ص33.
- 4_ شعيب حليفي، وظيفة البداية في الرواية العربية ص86.
- 5_ ينظر :شعيب حليفي، استراتيجية العنوان ، ص85_90
- 6_ جيرالد برنس، قاموس السرديات، تر: السيد امام ، ميريت للنشر ، القاهرة ، ط2003، 1، ص12.
- 7_ المرجع نفسه ص13.
- 8_ المرجع نفسه ص159.
- 9_ ينظر: أحمد العدواني، بداية النص الروائي ، مرجع سابق، ص36
- 10_ أندري دي لانجو، نوافذ ، جلد ع 10، ص36، نقلا عن أحمد العدواني 36.
- 11_ جلييلة الطريطر، شعرية الفاتحة النصية ، حنا مينه أنموذجا ، مجلة علامات جدة ، ع29 سبتمبر 1998 ص145.
- 12_ صبري حافظ ، البدايات ووظيفتها في النص القصصي، مجلة الكرمل، قبرص، ع21_22، 1986، ص142
- 13_ أحمد العدواني ، بداية النص الروائي ، مرجع سابق ص15.
- 14_ المرجع نفسه ص16.
- 15_ المرجع نفسه ص17.
- 16_ شعيب حليفي، هوية العلامات ، ص93.
- 17_ ينظر نور الدين صندوق ، البداية في النص الروائي، ط1، اللاذقية ، دار الحوار 1994،
- 18_ ينظر: أحمد العدواني ، بداية النص الروائي ، مرجع سابق ص37.
- 19_ ينظر جلييلة الطريطر، شعرية الفاتحة النصية، ص147.
- 20_ ياسين نصير، الاستهلال ، فن البدايات في النص الأدبي ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 199" ص33.
- 21_ أحمد العدواني ، مرجع سابق ص'414
- 22_ صنع الله إبراهيم رواية ذات ، دار المستقبل العربي ، القاهرة، ط4، 2003 ص9.
- 23_ الرواية ص9 .
- 24_ أحمد العدواني ، مرجع سابق ص382.
- 25_ الرواية ص26.
- 26_ الرواية ص330.
- 27_ الرواية ص15.